تعليمية اللغات وطرائق التدريس بين القديم والحديث

من المتعارف عليه أن مفهوم التعليمية قد ارتبط بكل شيء يتعلق بتعليم اللغات، والتي تعد أحد الحقول المعرفية الحديثة التي خصها الباحثون باهتمام كبير مع اختلافات تخصصاتهم ومجالات اهتماماتهم البحثية. وقد ظهرت في كندا وبعض بلدان أوربا في نهاية الأربعينيات بمفاهيم مختلفة لارتباطها بتخصصات تتلاقى معها، ففي إيطاليا وسويسرا ارتبطت بعلم النفس البيداغوجي واللسانيات النفسية، في بلجيكا ارتبط مفهومها بالبيداغوجيا.

وتعد تعليمية اللغات علما حديث النشأة اقترن ظهوره باللسانيات التطبيقية، يهتم بطرق تعليم اللّغات، ثم اتّسعت دائرة اهتمامه فأصبح يهتم بمتغيرات العملية التّعليميّة التعلمية، فينظر في المحتويات، فينتقيها وينظّمها لتتماشى مع الأهداف الموضوعة لها، ثم يحدد الطرائق والوسائل التي تكفل نجاح العمليّة التعليمية التعلمية.

وتعليمية اللّغات ميدان تتجسّد فيه ثمرة تكامل وتعاون جهود الإنسان في كثير من المجالات المعرفيّة باختلاف اتّجاهاتها وتخصّصاتها، فطبيعة الموضوع الذي تعالجه وهو كيفيّة تعليم وتعلّم اللّغة، يتطلب منها هذا الارتباط الوثيق بينها وبين حقول معرفية مختلفة، ولذا فالمشتغل في حقل التّعليمية، لا يكتفي بمعطيات حقل معرفيّ دون آخر فلكلّ ميدانه الخاصّ به، فإذا كان اللّسانيّ يتناول البنى اللغويّة التي بنيت عليها الألسنة البشرية ويبحث في وظائفها، وكيفية أدائها لها، فلا يمكننا أن نطمئن إليه، لكي يمدّنا بنظرية متكاملة في كيفية اكتساب اللغة البشرية وتعلّمها؛ والأمر نفسه بالنسبة للبيداغوجي أو عالم النّفس فهو الآخر وإن كان يهتم بظاهرة اكتساب اللّغة، لا يمكنه أن يفيدنا في التّعرف على أسرار البنى اللّغوية، لأنّ ذلك من اختصاص اللّسانيّات وحدها "وهذا دليل واضح على أنّ البحث الجماعي المتفاعل الممنهج المنتظم هو الذي يكفل–في هذه الميادين التّطبيقيّة (المتداخلة)– النتائج الإيجابية والحلول الناجعة...وقد أيقن الباحثون أنّ هناك حقيقة قد يتجاهلها اللسانيون والمربون الذين يعملون كلّ واحد بمعزل عن الآخرين، وهو أنّ بين البنى اللغوية وكيفيات اكتسابها علا قات ثابتة وقوانين خفيّة، يجب أن يكشف عنها الغطاء، وأن تصاغ على ما تتطلبه الصّياغة العلمية الدقيقة.

ولذلك فتعليميّة اللغات تراهن على الجمع بين ثمار فنون وعلوم عديدة، لكونها ميدانا فسيحا، يتجسد فيه العمل الجماعي المتكامل والمثمر، وتتقاطع فيه معطيات اللسانيات، وعلم النفس اللغوي، وعلم الاجتماع اللغوي، وعلوم التربية، ونظريات الاتصال، إلا أن الوظيفة الكبرى للتعليميّة تتجسد في إمكانية تكييف هذه المعطيات النظرية المجرّدة بإيجاد نوع من التناغم بينها ثم كيفية الاستفادة منها، وهي تتصدى لمعالجة موضوع اختصاصها وهو تعليم اللغة وتعلمها.

وتعليمية اللغات تتكفل بالإجابة عن مثل الأسئلة التالية: ماذا نعلم؟ من نعلم؟ لماذا؟ كيف نعلم؟ وانطلاقا من هذه التساؤلات تحدد التعليمية أقطاب العملية التعليميّة التعلمية المتمثلة في العناصر التالية:

–المتعلم (من؟) للتعرف على الخصائص الذهنية والنفسيّة للمتعلم.

– المحتوى (ماذا؟) لتحديد المضامين المعرفية المراد تعليمها.

– الأهداف (لماذا؟) لتحديد أهداف ومرامي التعليم.

– الطريقة (كيف؟) لاختيار الطرق والتقنيات البيداغوجية.

وهذا السؤال الأخير هو المحور الذي سترتكز عليه أغلب دروس هذا السداسي لأنه يهتم بالطرائق التي تقدم بها الدروس في محالة لتحقيق تعلم اللغات.

والتفكير السائد في مجال تدريس اللغات هو الاتجاه نحو الانتقاء، أي اختيار ما يبدو أنه الأفضل من مختلف الطرق والأساليب، فلا ينبغي الاعتماد على طريقة واحدة، والانتقاء يتطلب جهدا من المعلم، فهو يتطلب منه أن يعرف معرفة جيدة للمصادر والنظم وأساليب التعليم المختلفة، ليختار بحكمة ما يصلح لغرضه الخاص، كما يتطلب من الذكاء والحماسة والرغبة في رفض مالا يناسب، سواء من القديم أو الحديث، ويكيف طرقه بحكمة بدلا من اتباع طريقة بعينها.

والتدريس يتضمن أكثر من معرفة الطرق، فمعرفة المعلم للنظريات النفسية واللغوية، ولأساليب التدريس لا تكفي وحدها، لا تضمن النجاح، إذ أن من أسس التعليم الجيد اتجاهات المعلم نحو عمله وتلاميذه، فيجب أن يحب المعلم تلاميذه، ويخلص لهم، ويتفانى في أداء واجبه، ويحب المادة التي يدرسها.

ووجب على الطالب التمييز بين أساليب التدريس من جهة وطرائقه من جهة أخرى، فالطريقة من الناحية النظرية تشمل توجهًا نفسيّا والنظرة العامة، أما من الناحية العملية فتعني طرق اختيار المادة العلمية المراد تدريسها للطلبة الأجانب، كما تعني تدرج هذه المادة، أما الأسلوب فيشمل المساقات المستخدمة داخل الفصل الدراسي؛ لتدريس جزء من المادة اللغوية، فليس لكل طريقة أسلوب خاص بها، والذي يعتقد أن لكل طريقة أسلوبًا خاصًّا بها يكون اعتقاده خاطئًا.

والنظرة الشائعة إلى طرق التدريس تعتبرها وسائل لإيصال المعلومات إلى المتعلمين بتوسط المعلم. والأساس الذي تقوم عليه هذه النظرة هو أن التعليم عملية نقل المعلومات من الكتب أو من عقل المعلم إلى عقل المتعلم. ويؤخذ على هذه النظرة أنها تقتصر التعليم على المعلومات دون أهدافه الأخرى،

وتجمد المعرفة البشرية فيما هو موجود حاليا، وتجعل المعلم سلبيا لا عمل له إلا استقبال المعلومات، وتُسوّي بين المتعلمين بصرف النظر عما بينهم من فروق في القدرات والاهتمامات.

بيد أن النظرة الحديثة إلى طرق التدريس تعتبرها وسائل لتنظيم المجال الخارجي الذي يحيط بالمتعلم كي ينشط ويغير من سلوكه، إذا فهمنا من السلوك معناه الواسع الذي يشمل المعرفة والوجدان والأداء. والأساس الذي تقوم عليه هذه النظرية هو أن التعليم يحدث نتيجة للتفاعل بين المتعلم والظروف الخارجية، وأن دور المعلم هو تهيئة هذه الظروف بحيث يستجيب لها المتعلم ويتفاعل معها. وتتميز هذه النظرة بأنها تنوع أهداف التعليم، ولا تقصرها على المعلومات، وتعتبر المعرفة البشرية متجددة باستمرار، وتجعل دور المعلم إيجابيا في الكشف والتحصيل، وتراعي الفروق الفردية بين المتعلمين، وهي فوق هذا توسع مجال عمل المعلم من حيث اختيار المادة التي يقدمها، والأسلوب الذي يتبعه في التقويم، والوسائل التي يستعين بها في ذلك.

أي أن الطريقة متصلة بمهارات اللغة، تلك المهارات الأساسية التي ينبغي إتقانها في تعليم اللغات الثانية بل الأم أيضًا(الاستماع والتحدث والكتابة والقراءة)، فنجاح أية طريقة على قدرة أساليب هذه الطريقة، في تمكين الدارسين من المهارات الأربع، من حيث فهم ما يسمعونه أو يقرؤونه، عندما يصل إليهم عن طريق مستخدمي اللغة الأخرى، وخصوصًا الناطقين الأصليين، ومن حيث استخدام اللغة، عندما يتطلب الموقف إيصال معنى أو رسالة إلى الآخرين في الإطار الاجتماعي، الذي تستخدم فيه هذه اللغة.

والخلاصة أن طريقة التدريس ينبغي أن ينظر إليها لا على أساس أنها شيء منفصل عن المادة العلمية أو عن المتعلم، بل على أنها جزء متكامل من موقف تعليمي يشمل: المتعلم وقدراته وحاجاته، والأهداف التي ينشدها المعلم من المادة العلمية، والأساليب التي تتبع في تنظيم المجال للتعلم.